القدس في القصة العربية القصيرة

د. إبراهيم خليل - الأردن

كانت القدس، وما تزال، مصدر إلهام لكتاب القصة، والرواية، والمسرحية. فقد تكرر وصف المدينة بأحيائها في رواية "البحث عن وليد مسعود" لجبرا إبراهيم جبرا. وذكرت كذلك في روايته الأخرى "صيادون في شارع ضيق" وفي رواية "السفينة" وكانت على الدوام مقترنة بمدينة بيت لحم. ووردت أجواء من القدس في رواية: عيسى الناعوري بيت وراء الحدود، وروايات: عبد الحليم عباس، وفي روايات ليلى الأطرش، ولا سيما "وتشرق غربا"، و"مرافئ الوهم". ورواية شبابيك زينب لرشاد أبو شاور، وقد تحدث الناعوري في سيرته "الشريط الأسود" عن يومياته في القدس، مثلما تحدث إحسان عباس عنها في سيرته الموسومة بعنوان "غربة الراعي"، ومحمود السمرة في سيرته الموسومة بعنوان إيقاع المدى. وفي إحدى قصص محمود سيف الدين الإيراني: "الرصاصة الأخيرة"، نجد بطل القصة قادمًا من القدس ليقيم في عمّان. ولمفيد نحلة رواية تجري حوادثها في القدس، وعنوانها "أطفال القدس القديمة" (١٩٧٩).

وفي القصّة القصيرة الكثيرُ من الإشارات التي تذكّرُ بمَنزلة القدس قبل النكسة، وبعدها، وتمثل قصص محمود شقير، ومفيد نحلة، وخليل السّواحري، وأمين فارس ملحس، وإميل حبيبي، مصدرًا غنيًا بالحديث عن واقع هذه المدينة، لا سيّما في المجموعة المعروفة بعنوان "مقهى الباشورة".

وفي هذه الدراسة لنْ نتطرّق إلا لحضورها في القصة القصيرة بعد أنْ تناولنا حضورها في الشعر في موضع آخر.

وقد لاحظ الباحثُ على القصص التي تناولت موضوع القدس تمثيلها لمواقف ثلاثة: أحدها يروي ما كان من الشخوص فور وقوع الاحتلال، ثم تطوّر ذلك الموقف إلى مقاطعة سلبية، فإلى إضراب وتظاهر، ثم إلى احتجاج فاستشهاد. وثانيها يمثل استعادة ما كان من بطولات، وتضحيات في الماضي. وثالثها ما كانَ لتقسيم المدينة إلى: جديدة تحت الاحتلال الإسرائيلي، وقديمة تحت الإدارة الأردنية، على الناس في القدس، وغير القدس، من أثر، لا سيما على العائلات التي تشتت أفرادها، وشرّدوا، وظل الحنين يشدهم إلى أولى القبلتين.

القدس في مجموعة خبز الآخرين

ففي قصّة لمحمود شقير بعنوان: "البلدة القديمة" من مجموعته "خبز الآخرين" م١٩٧٥ تتواتر الإشارات إلى القدس، ولبعض الأحياء البارزة في الجزء القديم من البلدة، حيث الحرم القدسي الشريف، وما يحيط به

من جوامع، وأماكن عبادة : كنائس، وأديرة، وطرق عامة، معبدة، ،وأسواق مسقوفة، قديمة، تعود إلى مئات السنين. فقد استهلّ القصة بعبارة: أمام باب ستنا[1] مريم وهو اسم إحدى البوابات الكبرى التي تصل المدينة بما جاورها من مُدُن وقرى. فثمة باب الخليل، وباب السلسلة، وباب المغاربة، وباب الأسباط، وباب حبس العبيد، وباب حطة، إلخ... وهو يذكر أكثرها في القصة، ويذكر خان «أبو عيسى» ودير النوتردام، وهو أحد الأديرة المعروفة التي يرجع تاريخها أيضًا لمئات السنين. ولا يفوته بالطبع أن يذكر واسطة العقد، ودرّة القدس: قبة الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى، ذاكراً أيضا المقبرة الإسلامية التي تقع بالقرب من باب الأسباط.

عدا عن ذلك كله، لا يفتأ بطلُ القصة فرج الحافي الذي يزور القدس للمرة الأولى بعد الاحتلال الغاشم سنة ١٩٦٧ يُحدّق في السور الذي رفع بنيانه، ورُمِّم على عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، محاولا التحقق مما إذا كان السورُ باقيًا على ما كان عليه، أمْ تهدّمتْ منه أجزاءٌ، أو تتخلله ثقوبٌ من رصاص، أو قذائف.

والحكاية، في جوهرها تتناول نموذجًا فلسطينيًا ينتمي إلى إحدى القرى المحيطة بالقدس، ويدل على ذلك أمران، أوّلهُما لهجته الريفيّة التي تتجلى في حِواره مع امرأته التي حاولتْ أنْ تثنيه عن تلك الزيارَة، وتأجيلها إلى أنْ تهدأ الأحوال، وينسحب المحتلون اليهودُ منها، وهو يأبى ذلك في عناد شديد، قائلاً بلهجته الريفية: "هيّ.. هاي.. وقت أيش رايحة تهدى؟ من عقلك ها لحكي؟. "[2] والأمر الثاني قدومُه إلى القدس على متن حِمارٍ كعادةِ الفلاحين حين يزورون البلدة.

ولم يُصْغ فرج الحافي، الذي ليس له من اسمه نصيب، لما كان يَسْمعُ من حكايات مروّعة يرويها الناسُ عن أعمال اليهود، وتنكيلهم بأهالي القدْس، ظنّاً منه أنّ في ذلك شيئًا غير قليل من المبالغة، حتى ذهب بنفسه، وشاهد الأمرَ عياناً. فما هي إلا ساعاتٌ حتى اكتشفَ أنّهم يتحرّشون بكلّ عابر سبيل. فقد تعوّذ بالله، وأدار رأسه ببطء، متظاهراً بعدم رؤية الجنديّ الملتحي الذي يخفي جزءًا من رأسه بقبّعة مُستديرة صغيرة لا تكاد تغطي اليافوخ- دلالة على أنه من المتديّنين المُتطرفين- وإلى جانب ذلك يتقلّدُ سلاحًا صغيرًا (عوزي) وقد أوقفه الجندي ومن معه، وأخذوا يلتقطون له صُورًا وسط ضحكاتهم، وقهقهاتهم الساخرة، ثم شرعوا يمتطون الحمار بالتناوب، وراءه،

وهم يواصلون التقاط الصور، وكأنّه (فرّجة) هزليّة يسخرون منها، ثم تجيء ساعة الحساب، فإذا بهم يسألونه بعربيّة مُكسّرة من أين جاءَ، وما هي وجهته، وهل يعرف أحدًا ممن يعارضون وجود الجيش الإسرائيلي في القدس.. وعندما يقول لهم: إنه جاء لكي يصلي ركعتين في بيت الله- المسجد الأقصى- يعلو صُراخهم، وضَحكهُم، علوًا كبيراً. ولم ينقذه من تلك الورطة التي وجد نفسَه فيها إلا حمارهُ الذي رَفسَ بحافريه الخلفيين الهواءَ، وانطلق لا يلوي على شيء.

ومع أنّ فرجاً حاول الاستمرار في زيارة القدس لتحقيق ما كان يهدف إليه، وهو الصلاة في الأقصى، إلا أنّه اكتشف ما صرفه عن ذلك. فعندما وصلَ خان (أبو عيسى) وَجدَهُ مغلقًا، ومختوماً بالشمّع الأحمَر، وأخبره أحد العاملين في المقهى المجاور القريب من الخان " أنّ أيام العزّ يا شيخ راحتْ.. قولْ يا الله!.. "[٣] ويتصل الحوارُ بين فرج الحافي و"القهوجي"، ليكتشفَ القارئ من ذلك كله مبلغ التنكيل الكبير الذي فعله اليهود بالمسلمين في بيت المقدس. فقد سقطتْ على صاحب الخان وأولاده قذيفة أرسلتهم على الفور من الحياة الدنيا إلى الآخرة. ولم يكتفوا بذلك، وإنما قاموا أيضًا بإغلاق الخان، وختمه بالشمّع الأحمر، ولهذا فإنّ القهوجي ينصح فرَجاً بالعودة من حيث أتى. وعندما سأله عن أشخاص آخرين منهم الإسكافي، وأبو عبيدة اللحام، وبائع القماش، ومعمّر بوابير الكاز، الذي يُقالُ له: "أبو عادل"، أجاب القهوجيّ: إنه لا يعرف شيئاً سوى

محمود شقير

أنّ الناس نُكبوا، ومثلما يُقال: "على حظ الحزينة أغلقت المدينة."[٤].

على أنّ المؤلف لا يتركُ فرجًا وشأنه، بل يدعوه ليجول بنظره في البلدة القديمة، فإذا هي بيوتٌ متراكمة يجثم عليها صمتٌ حزين، وعندما وصلَ به حمارُه إلى المقبرة، تلفتّ في مربط الدواب، فلم يجد دابة واحدة، وكان في الماضي كلما حضر ألفاه مزدحماً من أوله إلى آخره. أما سيارات الجيش الإسرائيلي، فتعدو ذاهبة آيبة، مثل كلاب الحراسة تتحرّشُ بالمارّة. وكشأن أيّ شخصية قصصية جرى تحوّلٌ في موقف فرج الحافي بعد أنْ رأى ما رأى. وانتابته أفكارٌ هي أقربُ للتردّد منها إلى العزم، والتصميم، الذي كان. وتذكّر ما قاله القهوَجيّ، وهمّ أنْ يعود أدراجه منْ حيْثُ أتى. ولكنّ ما الذي سيقوله إذا سُئل عن المَسْجد الأقصى؟ وهلْ صلى فيه أم لم يصلّ؟ وهل فيه أثرٌ من رصاص أوْ حريق؟ فإنْ صدَقهُم القول، وأخبرهم بأنه لم يزر المسجد، ولم يؤد الركعتين في الأقصى، فسيقولون: "ملعون الوالدين قتله الخوف ورَجَعَ من نُصّ الطريق."[٥] وإذا كذب عليهم، وادّعى أنه صلى في المسجد الأقصى، فحبْلُ الكذب قصير. ويبدو أنّ حوارهُ مع النفس لم يطلْ، فقد همزَ حماره، وأسرع باتجاه الحرم القدسي مجتازًا باب حبْس العبيد، ليتصدى له نفرٌ من جنود الاحتلال، ويسألوه عن وجهته، فأخبرهم أنه يقصد بيت الله ليصلي فيه ركعتين ثم يعود إلى قريته. فقالوا له: "روّح بيتك" ثم هجموا عليه،

وأخذوا يجرّدونه من قمْبازه وهم يتضاحكون، ويصْخَبون.

لم يكنْ أمام فرج الحافي إذًا من خيار إلا العودة بملابسه الداخلية. وعندما دُهش أهل القرية لمشهده هذا، قالَ لهم: قصُّوا لحاكم، وشواربكم، والبسوا ثياب نسائكم، ولا تخرجوا من دوركم. "[٦] وأما بعد أن غادر القدس، والتفت بنظره للوراء، فلم ير إلا قبّة الصخرة المشرفة صفراءَ شاحبة كأميرة أسطوريّة أسيرة تحتاجُ لمَنْ يُنقذها، ويخلّصَها من الأسر. وهذه القصّة – في الواقع- من القِصَص النادرة التي تجعل القدس موضوعًا لها.

فالكاتبُ اختار شخصية قروية قادمة من محيط القدس، إلى المركز، البلدة القديمة، ويسعى هذا القادم ليحقق هدفاً مشروعاً لا جدال في أنه متاح لكلّ مؤمن بالله يريد أن يؤدي فروض العبادة، ونوافلها أنى شاء، وفي أيّ مكان، وهو حريٌّ أن يُتاح له هذا في الأمكنة المخصصة لذلك. ويأتي الاحتلال الصهيونيُّ الغاشم ليشكل حاجزاً يحولُ بين هذا الإنسان وتحقيق غايته المنشودة، فيحاولُ في شيءٍ غير قليل من الشجاعة أنْ يخترق الحاجز، ويضربَ بتجبرُّهم، وتعسُّفهم عرْض الحائط، فيرغمونه على الرجوع من حيث أتى بالقوة، ولا يكتفون بذلك، بل يلحقون به الإهانة والأذى النفسي. ويكونُ أنْ يضْعُف بطل القصة، ويفقد شيئاً من العزيمة والشكيمة، ولكنّ هذا الضعف، وتلك الهزة، سرعان ما تجتمع معهما الضغوط القاهرة، التي لا سبيل لمقاومتها، من إنسان بسيط أعزل من أيّ سلاح سوى الإيمان، فيقرّر العودة، وفي نفسه مرارة قصوى، وحقدٌ غير أعمى على الاحتلال، وجنوده. صحيحٌ أنه لم يصبح مقاوماً، ولا فدائياً، ولكنه أيقن من حقيقة جديدة، وهي أن السكوت على الاحتلال كالقبول به.

◁◁ القدس في تغريبة زيد الحامد

ومن بيْن القصص التي تشيرُ في سردها القصصي للقدس إشارة صريحة لا مواربة فيها قصة "تغريبة زيد الحامد" لمفيد نحلة، وهي من مجموعته القصصية "رمال على الطريق" ١٩٨٢، التي يمزج فيها الكاتب بين التاريخ والواقع في إطار رمزي يقرّب القصة من الأسطورة.

فالبطلُ الذي هو زيد الحامد أحد الناجين من المذبحة التي نفذها اليهود في أريحا وما جاورها من مدن وقرى فلسطين على وفق ما جاء في التوراة. وهذا الذي نجا يتخطّى – في الحدود التي يسمح بها السرد الأسطوري والغرائبي- الزمن القديم ليغدو رمزا للعصر الراهن، فهو المخلّص الذي يتصدى لجبابرة بني إسرائيل وعلى يديه يجري إحياء السكان الأصليين في عمورة، وفي يبوس، الاسم القديم لبيت المقدس. وحين تعود يبوس لماضيها الزاهر حرة من هيمنة العبرانيين، تنبعث الحياة مجددًا في مدن الساحل الفلسطيني: " ها قد عدت يا يبوس. أما المتردّدون فهم في القيعان الجافة. لقد اندثرتْ رؤوسُهُم فأكلها الطير. وأما الفرسانُ فهم الآن تحت جبينك المشرق.. ضحكتْ مُدُنُ السواحل. غنت عرائس الفرح. رقصن حتى هدأ الموج.. تفجّرت العيون المتحجّرة. وقف الأطفال يرقبون عوْدة المواكب."[٧] عندئذ يكتشف كهنة يهود أنّ عرافيهم أخطؤوا. فقد اتضح أنّ طفلا واحدًا- هو زيد- نجا، وعاد بعد سنين طويلة ليجدّد الحياة في مدن الساحل، ويرقص مع الراقصين لأيام تطول[٨].

◁◁ القدس في قصة أول يوم

وتشتركُ قصة خليل السواحري الموسومة بعنوان (أول يوم) مع قصة محمود شقير "البلدة القديمة" في غير ملمح، وأكثر من مَلْحَظ. فبطلها عطا أبو جلدة يجيء إلى القدس للمرة الأولى بعد الاحتلال، فقد كانت آخر مرة زارها فيها قبل أربعة أشهر، ولكنه في هذه المرة يشعر بغير قليل من المذلة والغربة، وهو شعور قلما أحسّ به من قبل: "أحس وهو يدخل باب المغاربة بأنه لا يدخل مدينة القدس التي كان يدخلها قبل أربعة أشهر."[٩] وسبب هذا الإحساس،

بالطبع، التغيير الكبير الذي أصاب المدينة، فقد هُدّمت البيوت التي كانت تقع أمام حائط البراق، وتحوّل موقعها إلى ساحة كبيرة خالية يتردّد إليها مُتديّنو اليهود الذين يذكّرونه بحيّ موشيرم، وشارع يافا في القدس الغربية قبل عام ١٩٤٨. فيهتف في نفسه منكراً ما يراه: "والله كأنّ الدار دارُهُم، ويحسبون أنهم سيظلون فيها مئة سنة"[١٠].

يقول هذا وهو يعتقد - جازماً - أنّ اليهود سيخرجون من القدس مثلما خرجوا من غزة عام ٥٦. وزيادة على ذلك لم يتوجّه كغيره من أهالي المدينة، والقرى المجاورة، ممن توجهوا لتسلم هويات إسرائيلية فرضها الاحتلال، وقد عدّ القبول بتلك الهويات خيانة لله، والوطن، والقدس[١١]. وحتى بعد أن ذهب مُعْظم رجال القرية للقدس، وتسلموا بطاقات الهوية، ظل أبو جلدة هذا مقتنعاً بأنه ليس في حاجة لمثل تلك الهوية: " لا أظن أنني سأحتاج لهذه البطاقة، حتى لو ظلوا "[١٢].

ومثلما طرأ تحول على شخصية فرج الحافي في القصة المذكورة لمحمود شقير، طرأ تحول على شخصية عطا أبو جلدة أيضاً. ففي البداية بدا ذلك التحول على هيئة مشاعر يمكن وصفها باهتزاز القناعات، والتردّد، كالإحساس بضرورة الحصول على هوية لتأمين نفسه على الأقل، إلا أنّ الأمل بالنقود التي سيرسلها ابنُه سالم من عمان تداعبُ خياله، وخيال زوجته حَمْدة، وها هو يقرّر الذهاب إلى ساحة باب العامود في القدس لينضم إلى مئات العمال الذين ينتظرون شاحنة يقودها صاحبُ عمل، فيسارعون لعرض أنفسهم عليه، فيختارُ منهم

من يختار ليذهبوا ويعملوا لديه. ومما صرفه عن التفكير بالحاجة الماسة للعمل ما رآه من تغيير أصاب البلدة، فمن الناحية الغربية جرى هدم السور، وأزيلت الأسلاك الشائكة، وشقّ طريق جديد معبّد ينطلق في خط مستقيم من أمام البنك البريطاني إلى النّوتردام، والباب الجديد[١٣].

ومن المفارقات المُدهشة أنّ الرجل ونظراءه كانوا يتمنون زوال ذلك السور عندما تحرّرُ القدسُ وسائر فلسطين، والآنَ يحزنهم هدْمه لأنه أزيل لأسباب أخرى، وهي توحيد المدينة تحت الاحتلال، لا بَعْدَ التحرير[١٤]، ويسمع- أخيراً- كلمة (شالوم)لأول مرة، ويعمل، ويتقاضى أجراً بالعملة الإسرائيلية. وعند عودته لقريته (سلوان) أحسّ بشيء من السعادة لكونه استطاع أن يجد عملا من غير أن يضطر لحمل الهوية الإسرائيلية الزرقاء، التي ما تزال تمثل في رأيه ضرباً من الخيانة. على أنّ شعوره هذا لم يطلْ، فعند اقتراب الحافلة من الباب المفضي إلى طريق (العيزرية) أوقف جنديٌّ الباص، طالباً من الرجال الهُبوط، وإبرازَ ما بحوزتهم من الهويّات، وعندما لم يجدْ هويّة لديْه انهال عليه ضربًا ولكمًا وركلا وغابَ عن الوعي لحظات، وجد نفسه بعدها في زريبة تشبه الإسطبل الذي تفوح منه روائح الروث، وتحسّسَ جسمه ليكتشف أنّ في جبهته جُرْحا غائراً، ورُضوضًا في سائر أعضائه، ومع ذلك لم يندم، لأنه لم يحمل الهوية الإسرائيلية، ولكنه ندم لأنه لم يستطع أنْ يصفع ذلك الجندي: "ولو كفّاً واحداً."[١٥]

ومثلما أشرنا من قبل، تحوّل هذا البطل في القصة من رافض للاحتلال إلى شخص يتمنى لو كان بإمكانه أن يصفع المحتلين. والرغبة في الرّدّ، والمقاومة، تمثل بالنسبة

له بداية، ولا بدّ لهذه البداية من أن تؤثر على المستوى البعيد. لأنّ التحول لدى الشخوص على مستوى السّرد القصصي لا يكونُ سَريعاً، وإذا جرى بسرعة بدا العَمَلُ عندئذ وكأنّه عملٌ مباشرٌ وسطحيّ.

القدس في قصة نفس تمباك

وتداعبُ خيالات سلمان الهرش بطل قصة "نفس تمباك" الأحلامُ بزيارة القدس بعد انقطاع دام أشهرًا بسبب الاحتلال. ليستعيد ذكرى الأيام الماضية حين كان يؤمُّ البلدة لبيع الحليب، والتردد إلى أصحابه ممن يسميهم (الأفندية) وإلى مقهى الباشورة حيث (الأرجيلة) ونفس التمباك المُعدّ حسب الأصول، فإلى مطعم تفوح منه رائحة الكباب المشوي، والخبز المحمّص المستخرج من الفرن لتوه، وأما امرأته حليمة فهي كزوجة فرج الحافي في القصة المذكورة سابقاً، تخشى إنْ هو ذهب إلى القدس أنْ يُعْتقل ويُزجّ به في السّجن: " نسيتَ أن اليهود يلمّون الناس من الشوارع؟ "[١٦].

ومثلما جرى مع فرج الحافي، وعطا أبي جلدة، تغيّرت قناعات سلمان الهرش بعد أن قام بالزيارة فعلا. كان يظن أن اليهود لا يعتدون إلا على المتدخلين في السياسة، الرافضين لوجودهم في القدس وفي غير القدس، ولكنه بعد أن زارها ورأى ما رأى لم يعد إلا بعد يومين. جاء متأخراً، يكاد يلفظ أنفاسه من الألم لكثرة الضرب الذي تعَرّضَ له من الإسرائيليين. في وجهه وحول عينه بقعٌ، وكدماتٌ زرق[١٧]. وعندما سُئل أجاب: " ليلة ويوم وأنا تحت الضرب، دون ذنب. كلّ ما حدث هو أنني خرجتُ مع الناس بعد صلاة الجمعة من الحرَم، وكنت أقصد مقهى الباشورة، وفي الطريق ألقى أحد الناس أوراقا مطبوعة، فقلت لنفسي: نأخذ ورقة ونقرؤها في القرية. وما كدْتُ أضع الورقة في جيبي حتى رأيت الشرطة تفتش الناس، وتسوقهُم في سيارات، وأخذوني إلى السجن، وأهلكوا بدني، وقالوا لي: إنني أوزّع المنشورات"[١٨].

وأخيرًا تحوّل سلمان تحولا كبيراً. فبعد أنْ كان يعتقد جازمًا بأنّ اليهود لا يعتدون إلا على من يتدخّل بالسياسة، أيقن أن التعايش مع هؤلاء الأعداء سرابٌ خادع، بعد أن جعلوا السجون مليئة بالناس الأبرياء، فضلا عن السياسيّين. [١٩] وهذا التحولُ الذي أصاب سلمان سرى منه إلى آخرين. فعليّ الفار، ومحمد الأزعر، كانا يسخران منه بادئ الأمر، وراحا يُفكّران باللهجة الجديدة التي بدأ يتحدّثُ بها سلمان.

القدس في قصة مقهى الباشورة

ويتكرّرُ الشيء نفسه في قصة للكاتب بعنوان "مقهى الباشورة". فصاحب المقهى- أبو بلطة - ظنّ لأول وهلة أن في الاحتلال منافع، فقد ازداد المرتادون وارتفع الدخل، وتمنى للاحتلال أنْ يطول. وعندما كان يسمع ما يقوله الأستاذ سعيد عن ضرورة رفض الاحتلال بالوسائل السلمية - أضعف الإيمان - كان يقابل ذلك بالسخرية أو اللامبالاة. لكنه يتلقى إشعارًا ضريبيًا من بلدية (أورشليم) يطالبه بدفع مبلغ كبير ثلاثة آلاف ليرة عن السنتين الماضيتين. عندئذ يتذكر ما قاله الأستاذ سعيد الذي حذره مما يظنه رغدًا فهو شيءٌ مُؤقتٌ، وسيأتي يوم قريب يكتشف به أن شهر العسل الذي يتمتع به أمثال أبي بلطة سينتهي بسرعة، وترجع الأحوال إلى ما كانت عليه في السابق [١٩].

وحين يبدي تبرُّمَهُ من المبلغ الكبير، يقول له الأستاذ سعيد: ولم لا تضربون؟ ثم كغيره من شخصيات القصص يشهد تحولا يُفصحُ عنه قوله: والله المسألة تحتاج إلى تفكير[٢٠]. وبتوالي المشاهد يتضح أن جلّ التجار وأصحاب المقاهي والمطاعم والمحلات التي يزدحم بها سوق الباشورة قد عزموا على إغلاق محلاتهم، فما فائدة البيع إذا كانت البلدية تأخذ ما جمعوه متفرقا مرة واحدة، فالنتيجة مثلما يقال في الأمثال: " احرثْ وادْرُسْ لبُطرُس"[٢١]. وليت الأمر يتوقف

عند هذا الحد، فقد همس له بعضهم أنّ الجنود الذين يترددون إلى المقهى يتعاطون المخدرات، فتنبه إلى ذلك، وبدأ يراقب الزبائن، وعندما رأى أحد الجنود ممن ظنوا أنه غافلٌ عنهم يخرج شيئا من جيبه، ويناوله للفتاة التي تجلسُ إلى جواره جنّ أبو بلطة، وطردهم من المقهى شرّ طردَة، وهم يحاولون إسكاته عارضين عليه رشوَة كبيرة. وشعر بإزاء توسلاتهم أن أيام (الجَدْعنة) قد عادتْ إليه هذا النهار، وقفزتْ إلى ذاكرته كلماتُ الأستاذ سعيد: ماذا تخسرون لوْ أضربتم؟ وفي تلك اللحظة يقرّر أبو بلطة أنْ يُضْربَ مع المُضربين.

وهذا تحوُّل جذريٌّ يقتربُ من المقاومة اقترابًا أكثر، فالإضراب شكلٌ من أشكال التصدي للاحتلال، وإذا تذكرنا أنّ القصة كتبت عام ١٩٦٨ عرفنا ما لها من تأثير في النفوس، وما توقعه المؤلف من إثارتها للنخوة، ودعوتها لليقظة، والانتباه، والحذر من مخططات الاحتلال الرامية لتهويد المدينة، وترحيل الأهالي المقدسيّين عن طريق التضييق، ومحاربتهم في الأرزاق.

القدس في قصة المتفرجون

في قصة "المتفرجون" يقترب النموذج المقدسي من المقاومة خطوة أخرى، فالسيدة الوحيدة في القصة (أمّ أحمد) امرأة كبيرة السن، تقيم في أحد أحياء القدس الشعبية "حي الواد" وقد أتيح لها من يراقبها مراقبة شديدة، وهو الراوي، الذي ظنّ فيها الظنون، لا لشيء إلا لأنه لاحظ عزلتها عن الآخرين، وقدومها متأخرة في الليل إلى بيتها الذي تغطي نوافذه الستائر بصفة دائمة، فالغموضُ الذي يحيط بها يحفزه على الارتياب بسيرتها، وأنها ربما

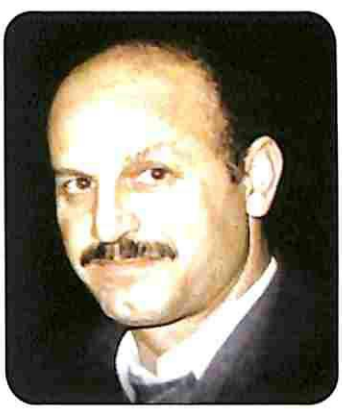

خليل السواحري

كانت بائعة هوىً، على الرغم من أنّ سنها لا يسمح لها، ولا يؤهلها لاحتراف هذه المهنة الغريبة على أهالي "حي الواد".

وبسرد بطيء يقنعنا المؤلف أنّ الراوي أصبح على قناعة من صحّة شكوكه، فيحمل نفسه حملا على ملاحقتها من مكان لآخر، ثم يغتلي ارْتيابُه بها عندما يشاهدها تتحدث مع سيدة أخرى في المنزل في وقت متأخر من الليل، مما يذكي في نفسه الرغبة في الوصول إلى ما يكشف عن حقيقة هذه المرأة. لم يترك وسيلة من وسائل المراقبة، والاستفسار، والتحقيق، إلا لجأ إليها، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ في يوم الجمعة الدامي الموافق للذكرى الثانية لعدوان ٥ حزيران- يونيو ١٩٦٧ تتبّع الراوي الفضولي- كثير الغلبة- أمّ أحمد ليكتشف من موقع قريب من الحرم القدسي الشريف، صالح للمراقبة، و(الفرجة) أكثر من غيره، أنها بعد صلاة الجمعة كانت تقود النساء في مظاهرة انطلقتْ من أمام المسجد، وكانت ترفع بيديها لافتة كتبت عليها عبارات بخط كبير تندد بالاحتلال وتؤكد بإصرار عروبة القدس.

وتتعرّض أمُّ أحمد لما تعرض له آخرون غيرها من المتظاهرين من القمع، والضرب، والمطاردة على ظهور الخيل، وفي اليوم التالي نشرتْ الصحف خبرًا عن استشهاد أم أحمد فيمن استشهدوا في المسيرة. قرأ الراوي الخبر قراءة من لا يحسن سوى الفرجة على الآخرين، يقول في القصة: "فكرتُ أنّ بإمكاني الانتظار في الساحة الخارجية لباب الساهرة. فمن هناك سيكون التفرّج على المسيرة أكثرَ وُضوحاً، وأقل تعرّضاً للأخطار"[٢٢] فهاجسه أن يراقب بعيدًا عن الخطر بدلا من المشاركة في المسيرة. ويقول في موضع ثانٍ: سمعتُ ولولة حادة، تنساب بين جموع الرجال الذين

اصطفوا يتفرجون مثلي على المشهد المروّع"[٢٣] وهذا ينمّ عنْ أنّ المؤلف يُحمّل التبعة على الرجال الذين يكتفون بدور المتفرج. ويكرر في القصة ألفاظاً من مثل: مراقبة، أراقب، ملاحقة[٢٤]. وهذا يؤكّدُ أنّ النموذج المقاوم في هذه القصة - دون غيرها من قصص ذكرتْ سابقاً - نموذجٌ نسائي.

صدمة الاحتلال في القصة

وإذا أضفنا هذه المواقف لمواقف سابقة عبرت عنها قصص أخرى، لاحظنا أن صدمة الاحتلال ووجهت بالصمت أولا، وبالتردد والموقف السلبي بعد ذلك، ثم بتمني الرد والتصدي على عَسْف الاحتلال وجنوده، وأخيرا الإضراب. فالتظاهر والاستشهاد، وذلك كله يتزامن في الواقع مع التحولات الكبرى التي شهدها شعب فلسطين بصفة عامّة، وأهالي بيت المقدس خاصة، من اتجاه نحو المقاومة بشتى الوسائل، والأدوات[٢٥].

أشارَ كتاب القصة لصدمة الاحتلال على المقدسيين، فأظهروا التردد والترقب إزاء المحتلين، فهل يتقبلون الوضع وهم لا يستطيعون فعل شيء، أم يقاطعون المحتل فلا يتقبلون ما يفرضه عليهم من أنظمة وتعليمات وقوانين: " هويات" و"ضرائب" أم يتصدون لهذا الاحتلال فيقاومونه بأضعف الإيمان: التظاهر والإضراب وتنظيم المسيرة والاحتجاج.

وهذا كله لا يفي موضوع القدس حقه من السرد القصصي اللافت للنظر. فقد شاء بعض كتاب القصة أن يرجع إلى وراء، إلى الماضي، فيستعيد صورًا من بطولات الفدائيين والمناضلين المجاهدين فيما تقدم من حوادث ألمت بالقدس وبغيرها من مدن.

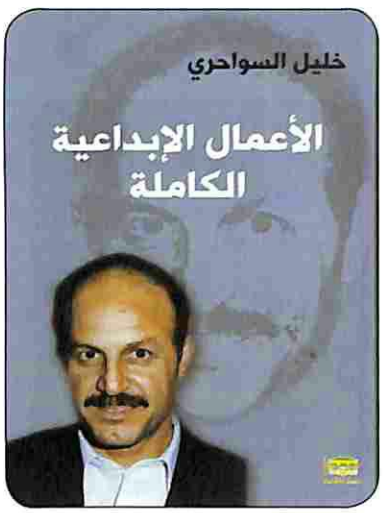

القدس في قصة طريق الآلام

ومن ذلك القصة التي كتبها أمين فارس ملحس (١٩٧٣) بعنوان طريق الآلام[٢٦] وهو الاسم الذي يطلق على الطريق التي يقالُ: إن المسيح- عليه السلام - قطعها مُتّجهًا إلى جبل الجلجلة حيث جرى صلبه مثلما يزْعمون.

ويذكرُ الكاتبُ إلى جانب الطريق بابَ الأسباط، والسور الشامخ العريق الذي يعبق منه أرَجُ التاريخ الغابر، ويذكر باب حطّة، وحمّام ستنا مريم، ويذكر أسماءَ كثيرة أخرى.

فالقصة تدور حوادثها في أثناء حرب عام ١٩٤٨ عندما تأخّر جاد الله محمود عبد ربه- أحد المجاهدين- عن العودة إلى قريته فشغلت عليه أمه، وأقسمت على بنيها أنْ يذهب أحدهم إلى القدس للبحث عنه، والمجيء بأيّ خبر. وهكذا يذهب الراوي للقدس باحثا عن جاد الله، وهذا الراوي يعرف المدينة معرفة جيدة، يعرف أحياءها بالتفصيل، ويعرف فيها أشخاصاً، ويسأل عن أخيه كثيرًا، وينصحه أحد الأشخاص بالذهاب إلى مستشفى الهوسبيس والسؤال فيه، فهو يستقبل يوميّاً عشرات الجرحى، وهناك أفادته ممرضة بأنها سمعت بهذا الاسم، وبأنه ليس غريبا عليها، وبأنه يستطيع الاستفسار في الطابق العلوي.

وأخيرًا ساقته قدماه إلى موظف مُكبّ على أوراق يحدّق فيها، فحياه، وردّ عليه التحية دون أنْ يُحرّك عينيه عن الأوراق، وعندما بادره بالسؤال عن جاد الله، توقف الموظف وشرع يدقّقُ في قائمة الأسماء، باحثاً عن اسم جاد الله، وحين وجده قام من فوره إلى خزانة في الحائط، واستخرج منها صُرّة صغيرة وضعتْ فيها ملابس تبدو عليها آثارُ الدماء، وحذفه بها قائلا: هذا هو ما تبقّى من جاد الله.

فجع الشاب بأخيه الشهيد، ولم يتصوّر وقع الخبر على أمه المنتظرة، التي لا يهدأ لها بال، ولا خواطر، إلا بعودة جاد الله للبيت، وأخيراً تحامل الشاب على نفسه يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ماشياً في طريق الآلام، عائدا عبر باب الأسباط، متوجها إلى قريته التي لا تبعد كثيراً عن القدس.

تقدّم القصة مثلما هو ملحوظ صورة مصغرة عن ذكريات المقدسيين. أما تصوير المدينة وما فيها من أمكنة جرى تسليط الضوء عليها، فيُؤكّدُ أنّ القصة تتخذ من الدفاع عن القدس موضوعًا لها مثلما اتخذت القصص الأخرى التي أشرنا إليها فيما سبق من احتلالها موضوعًا لفضائها السّرْدي. وقريبٌ من ذلك القصة التي تحمل عنوان "بوابة مندل بوم" وهو الاسم الذي يطلق على تلك البوابة التي استحدثت بعد عام ١٩٤٨ في سور القدس بإشراف هيئة الصليب الأحمر لتسهيل اتصال العائلات الفلسطينية الموجودة في فلسطين بأقاربها في الضفة الغربية والقدس، التي كانت تحت الإدارة الأردنية إذ ذاك. وكان هؤلاء يَحْضرون – في الغالب- بأذون تمنحها لهم الهيئة المذكورة، في الأعياد، والمناسبات الدينية على وجه التخصيص.

وقد تناول إميل حبيبي في إحدى قصصه هذا الموضوع[٢٧].

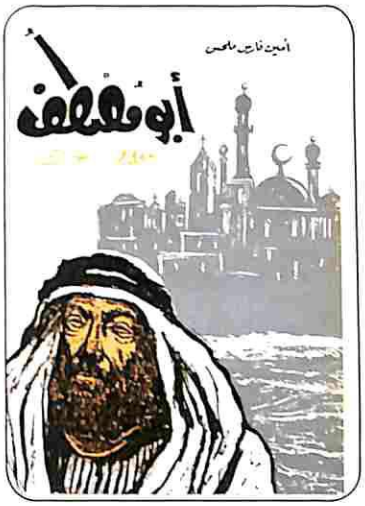

إميل حبيبي

فثمة سيّدة، هي والدة الراوي، تنوي اجتياز البوابة المذكورة، متجهة إلى القدس. وقد اجتذبَ انتباه الراوي أن السكان اليهود الذين يقيمون في الحي الذي تقع فيه البوابة لهم هيئة زريّة تبعث على الضحك، فسوالفهم طويلة متجعدة، ولذكورهم ضفائر تنوسُ على مناكبهم سواء أكانوا رجالا أمْ أطفالا، ويرتدون ملابس كهنوتية سوداً، وفضفاضة. وبعد تردّد سمح الشرطيّ حاسر الرأس للسيدة بالخروج من الجانب المحتل إلى الجانب العربي حيث يلوح حي (المُصرارة) وهو من الأحياء التي كانت تربط القدس الجديدة بالبلدة القديمة التي تقع داخل الأسوار. وتتدفق الذكريات. فهذه السيدة عاشت عشرين عامًا فيها، فهي تذكر كل شيء: " البيت، إناء الغسيل، جُرْن الكبّة، الذي ورثته عنْ أمّها، نداءَ بائعة اللبن.. رنين جَرَس بائع الكاز.. سعال الزوج المصدور.. ليالي زفاف أولادها الذين خرجوا من هذه العتبة واحدًا وراءَ الآخر.."[٢٨].

وإزاء هذه الذكريات التي تدافعت في ذهن السيدة مرة واحدة استقرّ رأيُ الراوي على نصيحة ينصح بها القارئ وهي ألا يأتي إلى بوابة مندل بوم مرة أخرى، فمن يخرج منها لا يعود، لأن روحه تبقى هناك حيث تلك الذكريات التي تشده من شعره وتبقيه أسير المكان المقدسي. فكيف ينسى اللحظات التي شاهد فيها أمّه، وهي تغادر البوابة، تدبُّ على عصًا، وتعبر الأرض الحرام ملتفتة وراءَها بين حين وآخر خشية أنْ يُغير الشرطيُّ رأيه، ويمْنعها من اجتياز البوابة.. إلى المدينة التي تحبّ؟

في تلك اللحظة جرى ما لم يكنْ متوقعاً، فإنّ الطفلة الصغيرة- ابنة الراوي – انطلقت من بين المودّعين ككرة تتقاذفها أقدام اللاعبين،

وهي تهتف: تيتا.. تيتا.. مخترقة الأرض الحرام حتى وصلت الجدة التي كانت تسير ببطء مُتوكِئة على العصا.. وعندما رأى الجميع ذلك التصرُّف من الطفلة الصغيرة، التي لا تفرّقُ بين أرض حرام وأخرى حلال، نكسوا رؤوسهم: الشرطيّ، حاسرُ الرأس، والعسكريُّ ذو الكوفية والعقال، في الجانب الآخر. وعموم الأشخاص الذين شهدوا الموقف، فهي طفلة ساذجة ألغتْ بهذا التصرُّف الهدنة، وترسيم الحدود، فعلى هذا الجانب والدها، وعلى الجانب الآخر جدّتها، فلماذا لا " تسْرَحُ وتمرح " بينهما كما تفعلُ في كل يوم؟ (٢٩).

ومنذ ذلك الحين قرّر ألا يصحب الأطفال لأن منطقهم بسيط وغير مركب، لكنه سليم في زمن بات المنطق الأعوج فيه هو السائد، منطق الاحتلال والتشريد.

القصة القصيرة ومشاهد مثيرة عن القدس

والواقع أننا إذا ضَمَمْنا هذه القصة لما سبق، وقفنا على مشهد شبه بانورامي، للقصة القصيرة حول القدس. فبعض القصص يعود بنا إلى ذكريات الماضي(١٩٤٨)ومن ذلك قصة طريق الآلام، وبعضها يعود بنا إلى هاتيك الذكريات مع شيء من التنبيه على ارتباط المقدسيين بمدينتهم حتى وإن كتب عليهم – لظروف قاهرة – أنْ يقيموا في غيرها، فهم دائمو الحنين إليها، والتوْق للإقامة في بيوتها العتيقة، وحواريها الضيّقة المسقوفة، التي تغرقهم بشعور الألفة، والمحبة، والتراحم الممتد آلاف السنين. وبعْضُها يتخطى بنا حاجزَ الذكريات، وما فيها من شعور رومانتيكي، محبّب، ليُعبر عن صدمة الاحتلال، وما شهده البطل المقدسي من تحول تدريجي إلى أن عرف الإضراب، والتظاهر، والشهادة. وهو – في ذلك كله- رافضٌ لما يجثم على المدينة من ثقل التهويد، وطمس الهوية، بتكثيف الاستيطان، وترحيل السكان، وتضييق الخناق عليهم، لدفعهم دفعًا للهجرة، فيفقدون بذلك العلاقة بالماضي، مثلما يفقدون الارتباط بالمكان.

وما ذكرناهُ منْ قصص، إنما هو غيْضٌ من فيوض تمتلئُ بها الصُحُفُ والدوْريّات، وتمتلئ بها المجاميع والمُختارات. فالاستقصاءُ في مثل هذا الموقف يعزّ على الباحث، ويشق على المتتبّع اليقظ، اللاهث، وراء الأمثلة، والنماذج، والنصوص. فإن كانت هذه القصص دالة على ما أردناه، وتوخّيْناه، في هذه الدراسة، فبها ونعْمَتْ، وإلا فللقارئ أن يلتمس ما يشاء من نصوص في مختلف المراجع، والمظانّ، وحالنا حال من يقول: حسبي من القلادة ما يحيط بالعنق ■

الهوامش:

(١) محمود شقير: خبز الآخرين، دار الثقافة الجديدة، القدس، ط٣، ١٩٩٥، ص٦٩.
(٢) خبز الآخرين، ص ٦٩.
(٣) خبز الآخرين، ص ٧٢.
(٤) السابق، ص ٧٣.
(٥) السابق، ص ٧٣.
(٦) السابق، ص ٧٤.
(٧) مفيد نحلة: رمال على الطريق، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ط١، ١٩٨٢ ص ٤٢.
(٨) السابق، ص ٤٣.
(٩) خليل السواحري: مقهى الباشورة، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ط٣، عمان، ١٩٨٩ ص٧.
(١٠) السابق نفسه.
(١١) السابق، ص ٩.
(١٢) السابق، ص ١٠.
(١٣) السابق، ص ١١.
(١٤) السابق، ص ١٢.
(١٥) السابق، ص ١٥.
(١٦) السابق، ص ١٨.
(١٧) السابق، ص ٢١.
(١٨) السابق، ص ٢٢.
(١٩) السابق، ص ٣٩.
(٢٠) السابق، ص ٤١.
(٢١) السابق، ص٤٣.
(٢٢) السابق، ص ٧٨.
(٢٣) السابق، ص ٧٩.
(٢٤) السابق، ص ٧٣.
(٢٥) انظر للمزيد: إبراهيم خليل= في لغة الأدب وأدب اللغة، دار مجدلاوي، عمان، ط١، ٢٠٠٨، ص ٢٣٩-٢٥٤
(٢٦) أمين فارس ملحس: أبو مصطف وقصص أخرى، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ط١، ١٩٧٣ ص ٤١.
(٢٧) مؤلفون: أنطولوجيا القصة القصيرة الفلسطينية، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٠، ص٥٠.
(٢٨) أنطولوجيا القصة القصيرة، ص ٥٦.
(٢٩) أنطولوجيا القصة القصيرة، ص ٥٩.